

## اصابوا الهدف

### بقلم غسان سلامه

يمضي التقليديون، سياسيين ومثقفين، الوقت الطويل في ترداد ان العنف لا ينفع ولا يحل معضلة، ويريح هذا القول محبذي الجدل والكلام وريقي القلوب، لكنه قول لا يصح دوماً، بل هو خاطيء اجمالاً. فقد لا يحل العنف مشكلة، ولكن آثاره السياسية مدمرة في الغالب. فالذي اغتال راين اختار رئيس حكومة اسرائيل الحالي، وبرنامجه السياسي، وتوقف مسار التفاوض. وأسهم في هذا التحول نشطاء "حماس" الذين قاموا بعملياتهم الانتحارية داخل اسرائيل.

اما الذين هاجموا بالامس مبنى الجنود الاميركيين في الخبر، فانهم فجروا نوعاً من السر المكبوت وأخرجوا فرقاؤه أيما احراج. هذا السر هو ان للأميركيين في المنطقة اليوم عشرات الآلاف من الجنود المرابطين بصورة مستمرة. في دول الخليج وحدها، ستجد اكثر من ٢٠ الف عسكري اميركي في اي يوم من ايام السنة، منمكين في أمور شتى من تدريب وصيانة وتأهيل الى مهام قتالية بالمعنى الحرفي كتولي مسؤولية بطاريات باتريوت للدفاع الجوي في السعودية او قيادة طائرات أ - ١٠ في الكويت.

صحيح ان عهد القواعد العسكرية الاميركية بالمعنى التقليدي انتهى منذ زمن بعيد مع اقبال قاعدة الظهران غداة الحرب العالمية الثانية وقاعدة ويلوس في ليبيا مطلع السبعينات. لكن فترة "تنظيف" المنطقة من الوجود العسكري الاميركي انتهت هي ايضا مع حرب الكويت. فالقوات الاميركية تتدخل اليوم في منطقتنا اكثر - التتمة في الصفحة ١٦ -

من اي منطقة اخرى في العالم، من المحاولة الفاشلة لتحرير الرهائن في ايران عام ١٩٨٠، الى انتشار المارينز ونشاط "النيوجرسي" العطرة الذكّر في لبنان، الى قصف ليبيا بالطائرات عام ١٩٨٦، الى تدمير نحو ثلث البحرية الايرانية في يوم واحد ربيع ١٩٨٨، الى "عاصفة الصحراء" ضد العراق وهي ما انتهت فصولاً، ناهيك بالعملية "العسكرية الانسانية" في الصومال عام ١٩٩٢. ولا يمر يوم من دون ان يعلن عن وصول بعثة عسكرية اميركية هنا، او عن بدء مناورات عسكرية مشتركة هناك.

وتجد اليوم وجوداً عسكرياً شبه دائم في ١٢ دولة من دول الشرق الاوسط. في تركيا طبعاً، وهي عضو في حلف الاطلسي. وقد عملت واشنطن، خلال السنوات القليلة الماضية، وبالنظر لانحياز الاتحاد السوفياتي، لاعادة تصويب القدرة العسكرية التركية نحو الجنوب في سبيل الضغط على سوريا والعراق وايران. في مصر ايضا، حيث تجري القوات المصرية مناورات مشتركة مرتين في السنة مع القوات الاميركية ("مناورات النجم الساطع") بينما تستفيد القاهرة من معونة عسكرية سنوية بمقدار ١.٣ مليار دولار. في الاردن حيث انتهت للتو زيارة طويلة ومناورات موسعة لقوة اميركية فيما استقبل مطار الأزرق في شمال البلاد ٢ اسراب من الطائرات الحربية الاميركية. في المغرب وفي تونس ايضا حيث تتكرر المهام العسكرية الاميركية وتتنوع يوماً بعد يوم. في دول مجلس التعاون الخليجي الست حيث نلحظ نمواً متصاعداً للوجود العسكري المباشر، ودورا متزايداً للبنتاغون في وضع الخطط والتدريب، كما في صيانة ترسانة مائلة من الاسلحة الاميركية المهيأة على ارض الدول الخليجية استحضاراً لمعركة جديدة ضد العراق او ضد ايران او ضد اي طرف آخر. ولا ضرورة طبعاً لذكر التعاون العسكري الاسرائيلي - الاميركي فهو، في حجمه وتكاليفه، ونوعية التعاضد التكنولوجي الذي يميزه، يجعل من اسرائيل حليفاً لا مثيل له لواشنطن.

والمذهل فعلاً في هذا النمو المتزايد للانتشار العسكري الاميركي، انه يتم، خلافاً لما هي عليه الحال في اوروبا او في آسيا، مع انعدام وجود احلاف عسكرية رسمية (مثل حلف الاطلسي) أو قواعد عسكرية تقليدية (مثل اوكرانيا) وبالتالي، ونظراً للحياء العربي من هذا الربط الشكلي، فان واشنطن تلجأ الى عدد من الحيل القانونية بغية تأمين هذا الانتشار من دون احراج الدول "المضيضة". مثال ذلك المناورات المشتركة مع جيوش هذه الدول وهي تتميز اولا بعددها الكبير (هناك ٢٢ مناورة مشتركة ملحوظة لسنة ١٩٩٦، منها مناورة مشتركة اميركية - قطرية بدأت اليوم بالذات)، وتتميز ايضا بطول مدتها (اذ هي تتجاوز الشهرين مراراً). هذا التكرار وهذه المدد غير المألوفة يسمحان للبنتاغون بأن تكون له قوى مستعدة لمهام قتالية في المنطقة وفي استمرار دونما حاجة الى قواعد في المعنى المعروف.

أضف الى ذلك نمواً سريعاً في القوات المنتشرة في عرض البحر دائماً على مقربة من المنطقة. فهناك في شرق المتوسط، ومثلها في بحر العرب، وحدة بحرية كبيرة تتألف من حاملة طائرات تحوط بها دزينة من البوارج الحربية، وتتضمن وسائل للانزال الفوري خلال ساعات على اي من شواطئ المنطقة.

وليس سرا ان السنوات الثلاث الماضية قد شهدت ايضا تطويراً غير مسبوق في وسائل النقل العسكرية أوجزه وزير الدفاع الاميركي وليم بيرر كالآتي: عام ١٩٩٠، بعد اجتياح الكويت، لم تتمكن اميركا من نشر ثلاث كتائب مدرعة في السعودية الا بعد مضي ثلاثة اشهر. عام ١٩٩٤، عندما تحركت بعض القطعات العراقية على الحدود مع الكويت، تم نشر هذه الكتائب الثلاث في اقل من ثلاثة اسابيع. اما اذا نشبت أزمة جديدة اليوم، فلم تعد هذه العملية تحتاج الى اكثر من ثلاثة ايام على الأكثر!

وما هذا سوى غيـض من فيض، والحبل على الجرار والناس ملتهمية بالامور الصغرى بينما تتغير المعطيات الاستراتيجية في صورة متسارعة، ويزداد اعتماد معظم دول المنطقة على هذا الانتشار العسكري الغربي المتزايد، مع سقوط العائق السوفياتي يوم انهيار حائط برلين، ومع أفول الخفر العربي يوم دخول عسكر العراق الى امانة الكويت.

هكذا ينجلي الهدف الاساسي للذين هاجموا في الخريف الماضي مقر البعثة الاميركية لدى الحرس الوطني في الرياض، وهو نفسه هدف من وضع الصهريج المتفجر امام مبنى سكن العسكريين الاميركيين في الخبر: كشف حجم الوجود العسكري الاميركي لا في المملكة السعودية فحسب، ولا في الخليج وحده بل في عموم المنطقة، لاجراج قادة هذه الدول في عيون شعوبهم.

ومهما نبذنا هذا النوع من التعبير السياسي الدموي، فالحق يقال ان من قام بهذه الاعمال اصاب هدفه، وان اصابته ستشجعه على اعمال اخرى من هذا النوع في مختلف البلدان التي يتم نشر قوات اميركية.

فهذا الانتشار العسكري كان يختبئ في السنوات الخمس الماضية وراء عملية التسوية العربية - الاسرائيلية. وما كان المواطن العربي يسأل الكثير عنه بينما هو يتوقع سلما اقليميا عاما. بل حظي هذا الانتشار بقدر لا بأس به من القبول، ان لم يكن من الشرعية، بسبب التحديات التي ما انفكت بغداد وطهران (وبعضهم يضيف صنعاء والخرطوم وطرابلس الغرب، بل ودمشق) تشكلها في عيون جيرانها.

لكننا نقرب اليوم من ساعة الحقيقة. فكيف لهذا الانتشار العسكري الواسع ان يستمر ان ترافق مع توقف في العملية السلمية، وان تزامن مع انحياز دبلوماسي اميركي متزايد لمصلحة اسرائيل؟ هل يسكت محبطو العملية التفاوضية، ان لم نذكر اعداءها في الاساس، عن تنامي هذا الانتشار العسكري، بعدما نكث راعي التسوية بوعوده، فأشاح بنظره عن القرارات الدولية وعن آمال مدريد مقتربا حتى الالتصاق او بالكاد من مواقف تنتياهو وزمرته؟

قد يكون هذا التناقض بين دبلوماسية اميركية عقيمة وقدرات عسكرية متنامية بلا كلل، جوهر المأزق الكبير الذي تنزلق فيه منطقتنا. فاذا تعطلت لغة الكلام فعلا، صدحت لغة العنف بلا هوادة، ولا ينفعا امام هول ما نخاف، وخطورة ما هو حاصل، استحسان عابر لبيان يصدر عن دول اوروبية في فلورنسا او عن دول مصنعة في ليون. فالخيار لم يكن يوما بين تقدم في مسيرة التسوية وتوقف في تلك المسيرة. الخيار الحقيقي ليس بين التسوية والثلاجة، انه، في وضوح، بين التسوية العادلة والشاملة من جهة، وفوهة البركان من اخرى.

غسان سلامة